انما يعمر م

القاهرة قطة، تجوب شوارع القاهرة

القاهرة قطة، تجوب شوارع القاهرة، تأخذ قميص جدها الأبيض إلى الكواء على شاطئ النيل، تُدخن١ سيجارة وتحمل على كتفها سجادة وورعا.

القاهرة قطة، تموء كل صباح في القاهرة تحت أعمدة جسر، في رغبة إشتهاء يائسة وهي رابضة، عندما تكتشف على شجرة حور مجروحة صوتا مؤذنا لطير حاج، و يبقى هذا الصوت بالنسبة إليها – برغم الجهود – صعب المنال، لأنها رهنت جناحيها الرائعين إلى الأحذية في واجهة المحل، ومنذ ذلك الحين تركت قفازاتها تهزل على خيط حرير.
القاهرة قطة، يندر أن تصدر بأنفها المجعد فحيحا في القاهرة، ولا تترك رغيفها لأسراب البعوض الغائرة، وتتألق فرحاً عندما يمر غريب وتدندن القليل من الكلمات المصرية.

القاهرة قطة، تقفز في القاهرة فوق الليل، تغوي حتى الضوء الضئيل بشواربها للضحك ويهدل النيون في عضلاتها لتبدأ قفزة القطط بحزم.
في بعض الأحيان تستحم في النيل، ثم تُغير وجهتها فتلعب مع الضفاف دوارة. وليس بغرور أقل تدهن بكل نظرتها الثابتة حواجب النهر المقدس ببعض دهن الشعر في المساء قبل أن تتسلل مرة أخرى إلى ظلام الشوارع.

القاهرة قطة، تعيش في القاهرة على عربة دراجة تُصلصل، تُمجد البطيخ الريان في مكبر الصوت وتشرب زجاجة بيرة واحدة فقط عندما تخرج الأسماك إلى اليابسة لتأخذ نفسا من الشيشة للاسترخاء، لأن سباحي النيل المهملين ليست لديهم رغبة بعد للتفكير في حياة الزعانف الغائصة، وأنما يعرضون قشورالوهم العائمة للبيع في أكشاك سوق خان الخليلي. جافة ولها نكهة التفاح.

القاهرة قطة، تحكي لك قصصا من دون أن تفشي السر، ولهذا السبب لا يمكن ترويضها. عندما يرتفع سعر الخبز تغضب وتقرقر شاكية بحزم، لكن يمكنها أيضا أن تدندن بدرجات موسيقية أعلى. إذا كانت بحاجة إلى ذلك، تزعق بكل درجات الصوت مكشرة عن أنيابها. أحيانا يكون أسمها فريس، من صعيد مصر، تموء على درجات المساجد نغمات تانغو البحارة، وحيدة حزينة طول النهار وتضرب على العود الغبار من اللسان.
هي المدينة، أحيانا إسمها أيرينا أو ليلى. قبل الظهر تذهب بين الحين والآخر إلى المقهى، تجلس بإرتياح، وتوجه أذنيها إلى الأمام وإلى الخارج قليلا، تُنوه بشواربها المصقولة الى مروحة جاهزة للمحادثة – تُتقن أبجدية العلامات المخفية – وترمش ظلا صغيرا في الشمس الذي ينعكس في كل كوب ماء بعد الأمس.
ثم تُمشط بأنفاسها أكثرالأفكارعبا في لغتها، تتحدث عن الخلق والخالق أو تغفو بدمدمة مثل البخار ويبدو أنها تتصيد الكلمات والمشاعر.
كلياً بدون الحزن وأوعية الصدقات.
بعض الأحيان، تتذكر أيضا أن تزورالإلهة باستت من جديد، لأنها تُحب سماع قصتها عن الأساطير القديمة للفينيقيين، الذين كانوا أول مهرّبي القطط. ثم تحكي للزبائن الآخرين بفخر وبعيون براقة، كم لقيت من تكريم كبير تحت حكم توت عنخ أمون ورمسيس، وأنها من بين كل ظواهر السماء أرقى و أنبل إلهة.
في نهاية المطاف تفرح بشكل كبير لكونها من أصل فرعوني، وتلعق باللسان حتماً قراء أسلافها المخملي بلطف وتحرك برفق الزمن الآفل.
وتومئ مرارا وتكرارا عمرها الأهرامي بكلماتها الخاصة، حتى تسحب بمتعة نفسا من الشيشة، أو تحتسي على مهل الشاي الذي يخفف قليلاً من وطأة صوتها المرهق من كثرة الكلام.

القاهرة قطة، تبيع الساعات في قاهرة الوقت، في أحلامها تلقي معطفا شتويا على الأكتاف الباردة للثلج، ولا تحمل معها أبداً مفتاح المنزل، لأن مصاريع النوافذ تكون مغلقة في أكثر الأحيان، ودائما يوجد شخص ما في المنزل، يعيرها كتابا إذا شعرت بالحاجة للقراءة.
يمكنها قضاء ساعات مع الأدب، تتلو فيها الأبجدية والطرق الملتوية وأعمدة الخرسانة، وتنسب الى أوراق الخريف حكمة كينونية، لذلك تضع الأوراق من أجل اللوائح والأرقام الغامضة.

إنها تعرف الاملاءات والشهوة المضطربة لدى المسؤولين وتبحث عنها كمن لا يميز أيضا بين اللافتات الدعائية ومندوبي الأكياس البلاستيكية وعلب المشروبات. تُفضل بدلا من ذلك أن تدعو لجولة لعب على الطبلة وتربح ضد كل من حولها من القطط.

تنعزل أحيانا وفي الأفق يترامى إلى السمع ترتيل القرأن وأحياناً الإنجيل.

القاهرة قطة في القاهرة، تعشق بشكل منتظم المطبخ السوري، وتؤله صمويل بيكيت وتُشيد بـ«كراسي» يونيسكو. بالطبع تعتقد أن إليوت هو الشاعر الأكثر أهمية في القرن العشرين. في بعض الأحيان تريد أن تهاجر وتولي مصر ظهرها، لكنها في الغالب تستعد للبقاء في المنزل، وتشتري جريدة من أقرب كشك. وتقول: الأخبار هي أوبريت طبيعية مثل علب تكييف الهواء المعلقة على البنايات السكنية المتراصة، ويمكن مقارنتها بالبيرسينغ. ليس هذا ما يمكن دائما فهمه على الفور، لكنه ليس بالضرورة غير معقول.

تُفضل بطبيعة الحال لأسباب صحية مراوح الغرف، والتي تسهل لها النوم بالحركات الدائرية الرتيبة، لأنها لم تعد ملزمة بأن تحصي عدد الأغنام حتى تذهب في سبات مريح.
تتأنس بالحمير، ومحرك البحث غوغل هو كرة الصوف المفضلة لديها.
القاهرة قطة تنزوي أحيانا في القاهرة، لاتترك أحد يلمسها أو يداعبها الا إذا أرادت، وتضغط فجأة الذقن وتُسرع لتلحق بالقطار إلى الإسكندرية لتنصت إلى عود سيد درويش المتيم، عندما تتمكن في الليالي السابقة من أن تجمع ما يكفي من القمامة والنفايات الأجنة.
تريد في المرة القادمة البحث عن كلمة «الضباب الدخاني» في قاموس الكلمات الأجنبية، وملء الفجوات بين أسنانها برمل الصحراء من الغرب، وأن تحتضن بكفوفها على جسر العشاق سيقان العشاق المطمورة الذين يجدون الآمان تحت جنح الظلام ويشعرون بالخجل.
تقول دائما: «إن فكرة اللمس هي أجمل اللمسات».
القاهرة قطة في القاهرة، لا أحد يمكن أن يتأكد أبدا من قدرتها على كتابة اسمها، وهي تعرف بالضبط أنه ليس لها على الإطلاق علاقة قرابة مع ورق النخيل المُعفر لمنتزه الشاطئ الإفتراضي، ومع ذلك تنتزع من النيل مرارا أجمل نبتة غرنوقي، وتركب بشغف في تاكسي، نوافذها لايمكن إغلاقها بعد. وقيل إنها اخترعت موسيقى النشاز في واحدة من هذه الجولات في التاكسي، ومنذ ذلك الحين وهي تجمع زمامير السيارات. وتحفظ بعناية ألحانها الثمينة تحت حجاب جدتها.
تُقبل صغارها مع أغاني النوم المنسية يوم الجمعة وفي أيام العطل بابتسامة لطيفة، وتأتمن بلغة غير معروفة خلسة القصائد، التي لم تقع عيناها على زي رسمي والتي نضجت وزالت كالياسمين.
أحيانا تجلس مرتجفة على جناح فراشة. لونها أمغر ناعم وتتمايل بلطف كأنها على كرسي هزاز.
ثم توقف الموت ليشرح لها أنه كان يؤدي واجبه.

ولكن ربما هذا غير صحيح على الإطلاق، والقاهرة ليست قطة، التي في القاهرة قطة...
أعتقد أحيانا أنها كانت معي. أو كنت أنا الذي كان معها.

خوزيه ف.أ. أوليفر